مصطلحات المماثلة ودلالاتها في الفكر الصوتي عند سيبويه

أ. جيلالي بن يشو (جامعة مستغانم)

- الملخص :

إن الدراسات الحديثة في علم الأصوات كثيرا ما تغفل المصطلحات الصوتية عند اللغويين العرب القدامى، و تستعمل مصطلحات مترجمة من اللغات الأخرى، علما أن معالجة أسلافنا للمسائل اللسانية بصفة عامة، لا تبتعد عن تلك الدراسات التي قيد بها اللسانيون المحدثون هذه الظاهرة، كما أن البحث الدلالي لهذه الثروة المصطلحية التراثية اصبح أمرا مهما يجب الرجوع إليه، كون هذه الثروة تحوي الكثير من المصطلحات يمكن استغلالها، و توظيفها في البحث اللساني الحديث.

انطلاقا من هذا الطرح آثرت أن يكون بحثي في مصطلحات **المماثلة، ودلالاتها** عند سيبويه(180ه)، محاولا تبيان أسبقية هذا العالم في البحث في هذا المصطلح.

تعريف المماثلة : Assimilation

لغة : يقول ابن منظور (ت 711 هـ) في مادة (م، ث، ل) : «هذا مِثْلُه و مَثَلُه كما يقول شبهه و شَبَهَهُ، قال ابن بري: و أما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين ... والمثل الشبه، يقول: مِثْلٌ و مَثَلٌ، و شِبْهٌ و شَبَهٌ بمعنى واحد». (1)

اصطلاحا : يعرفها دانيال جونز (Daniel Jones) بأنها: «عملية إحلال صوت محل صوت آخر تحت تأثير صوت ثالث قريب منه في الكلمة أو الجملة، و يمكنها أن تتسع لتشمل تفاعل صوتين متواليين ينتج عنهما صوت واحد مختلف عنهما.» (2) وجاء في تعريف بروسنهان Brosnahan بأنها: «التعديلات التكيفية للصوت حين مجاورته للأصوات الأخرى» (3)، و يراها أحمد مختار عمر: «تحول الفونيمات المتخالفة إلى متماثلة إما تماثلا جزئيا أو كليا» (4)

تتأثر الأصوات في أي لغة من اللغات بعضها ببعض في البيئة خلال عملية النطق، مما يؤدي إلى تغيير مخارج بعضها أو صفاتها، لكي تتفق في المخرج، أو الصفة مع الأصوات المجاورة، واللغة العربية في تطورها التاريخي

- (1) لسان العرب ، ابن منظور مادة (م ث ل) دار صادر للطباعة و النشر ، دار بيروت للطباعة و النشر 1388 هـ- 1968 م .

(2) -etics - Daniel Jones- W Heffer Sons LTD Cambridge Englend 9th 1972 , P 217. An outline of English phon

(3) الأصوات اللغوية ، د. عبد القادر عبد الجليل دار صفاء للنشر و التوزيع، عمان الأردن ط1 1418ه-1998م ص 283. -

(4) دراسة الصوت اللغوي ، د. أحمد مختار عمر دار الكتب ط3, 1405هـ-1980 م ص 324.

عرفت هذا اللون من التأثر، شأنها في ذلك شأن اللغات الأخرى، و لعل من أكثر هذه الظواهر استخداما في اللغة ظاهرة المماثلة بأضربها وأشكالها المتنوعة [5]، إذ كثيرا ما تستنجد بها لغتنا لتفادي كل تنافر أوتباعد يصيب أصواتها في تواصلها، لتحقيق التوازن بين عناصرها ليعم التوافق و الانسجام بين أصوات التركيب: «فالمماثلة تطور صوتي يرمي إلى تيسير النطق عن طريق تقريب الفونيمات بعضها من بعض أو إدغامها بعضها في بعض لتحقيق الانسجام الصوتي» [6]

مصطلحات المماثلة عند سيبويه :

المماثلة Assimilation من الظواهر الصوتية الضاربة جذورها في أعماق العربية، اهتم بها العلماء العرب النحاة، والصرفيون، وأهل القراءات المختلفة، فرصدوا مظاهرها، وأوجهها المختلفة، ووضعوا لها الكثير من الضوابط و القواعد، إلا أنهم لم يعالجوها معالجة شاملة مستقرة، بل كانت جزئياتها موزعة على أبواب متفرقة منها ما كان مبثوثا ضمن بحوثهم لظواهر الإبدال، والإعلال، والإمالة، وغيرها من المسائل الصوتية، والصرفية، والنحوية.

---

(5) حول أنواع المماثلة ينظر :

التطور اللغوي : مظاهره و علله و قوانينه، د. رمضان عبد التواب - مكتبة الخانجي (القاهرة) دار الرفاعي (الرياض) ، ط 1404هـ-198 3 م ص 22-23

(6) الأزهري اللغوي، صاحب معجم تهذيب اللغة، و كتابه الزاهر، تأليف الدكتور سميح أبو مغلي، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع - عمان- الأردن، ط 1: 1998 - 1418هـ- ص 89.

لم يستقر سيبويه (ت180هـ) - كغيره من اللغويين- على مصطلح مقيد لهذه الظاهرة، بل راح ينعتها بجملة من التسميات منها :

* **المضارعة** [7] : عقد سيبويه عنوانا تحت هذا المصطلح سماه: «هذا باب الحرف الذي **يضارع به** حرف من موضعه، والحرف الذي **يضارع به** ذلك الحرف وليس من موضعه» [8] ، وهو يعني بالحرف الذي من موضعه الصاد الساكنة، إذا كانت بعد دال، فإن تحركت الصاد لم تبدل لأنه قد وقع بينهما شيء: «فأما الذي **يضارع به** الحرف الذي من مخرجه فالصاد الساكنة إذا كانت بعدها الدال ، و ذلك نحومصدر واصدر والتصدير»[9] في هذا النص تتضح ظاهرة المضارعة الصوتية التي يعنيها سيبويه، فهو يرى أن إدغام الصاد في الدال، أو إبدال الدال حرفا يناسب الصاد كالطاء في نحو مصدر، وأصدر، والتصدير غير ممكن، ويفسر ما حدث في هذه الأمثلة، بأنه مضارعة للصاد بالزاي أي تقريبها منها، أي عن طريق إدناء الصاد المهموسة من الدال المجهورة و هذا بإشرابها شيئا من جهر الزاي الذي يشاركها في المخرج والرخاوة والصفير ويتفق و الدال

---

7 - يدل المعنى العام للفظ **المضارعة** على المشابهة ورد في لسان العرب «و المضارع المشبه، والمضارعة المشابهة، و المضارعة للشيء أن يضارعه كأنه مثله، أو شبهه... المضارعة المشابهة و المقاربة قال الأزهري: و النحويون يقولون الفعل المستقبل مضارع لمشاكلته الأسماء فيما يلحقه من الإعراب، و المضارع من الأفعال ما أشبه الأسماء و هو الفعل الآتي و الحاضر. و المضارع في العروض: مفاعيلن فاعلاتن مفاعيل فاعلاتن، سمي بذلك لأنه ضارع المجتث " لسان العرب ابن منظور، مادة (ض ر ع)

8 - الكتاب: سيبويه تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت ط 1, 1411ه- 1991م ج: 4 ص: 477.

9 - نفسه و الصفحة نفسها.

جهرا: «فلما كانتا من نفس الحرف أجريتا مجر المضاعف، والذي هو من نفس الحرف في باب مددت، فجعلوا الأول تابعا للآخر **فضارعوا** به أشبه الحروف بالدال من موضعه و هي الزاي لأنها مجهورة غير مطبقة، ولم يبدلوها زايا خالصة كراهية الإجحاف بها للإطباق» [10] وهذا النوع من المماثلة أشار إليه علماء الأصوات المحدثون و صنفوه ضمن المماثلة المدبرة الجزئية في حالة الاتصال[11].

بعد أن شرح سيبويه ما يعنيه بالحرف الذي يضارع به حرف من موضعه انتقل إلى الحديث عن الشق الآخر من هذا الباب وهو الحرف الذي يضارع به ذلك الحرف وليس من موضعه، أي ليس من مخرج الصاد والسين و الزاي، هو الشين لأن مخرج الشين طرف اللسان مع ما فوقه من الحنك الأعلى في حين أن مخرج أصوات الصفير (الصاد- السين- الزاي) من طرف اللسان، وأطراف الثنايا السفلى[12] ولما كانت الدال في كلمة **«أشدق»** مجهورة تأثرت بها الشين التي هي في- نظر سيبويه- في الهمس والرخاوة، كالصاد والسين، فصارت الشين مجهورة فضارعوها بالزاي: «وأما الحرف الذي ليس من موضعه فالشين لأنها استطالت حتى خالطت أعلى الثنيتين و هي في الهمس والرخاوة كالصاد والسين وإذا أجريت فيها الصوت وجدت ذلك بين طرف

10 - المصدر نفسه ص: 478.

11 - ينظر: التطور اللغوي مظاهره و علله و قوانينه. د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي القاهرة- دار الرفاعي الرياض ط1- 1404ه- 1983م ص: 34 .

12 - ينظر: الأصوات اللغوية د. عبد القادر عبد الجليل، ص: 130, 131.

لسانك و انفراج أعلى الثنيتين، و ذلك قولك أشدق، **فتضارع** بها الزاي»[13] في المثال الذي أورده سيبويه **(أشدق)** تماثلت الشين مع الدال التالية لها في الجهر، **فصارت** النظير المجهور للشين، وفي الحقيقة أنه يتحدث عن صورة صوتية واحدة، وهي تلك الشين التي كالجيم، و قد وصفها ابن جني بقوله: «و أما الشين التي كالجيم، فهي التي يقل تفشيها، واستطالتها، و تتراجع قليلا متصعدة نحو الجيم»[14]و هذا النوع من المماثلة في الدرس الصوتي الحديث يسمى بالتماثل المدبر الجزئي في حالة الاتصال [15] .

* الإبـدال أو القلـب :

يطلق سيبويه على المماثلة **الإبدال** وهو عنده لون من التقريب بين الأصوات ليتم التجانس و التماثل من ذلك إبدال الصاد زايا خالصة في نحو **التصدير، والفصد، وأصدرت** فقالوا فيها **التزدير والفزد وازدرت**[16] وقد علل ذلك قائلا: «و إنما دعاهم إلى أن يقربوها و **يبدلوها** أن يكون عملهم من وجه واحد وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد» [17] والذي يقصده سيبويه بأن يكون عملهم من وجه واحد أي إبدال الصاد زايا لأنها أختها في مجموعة الأصوات الصفرية، والفرق بينهما أن

13 - الكتاب- سيبويه ج4 ص: 474.

14 - الخصائص أبو فتح ابن جني تحقيق محمد عل النجار دار الكتاب العربي بيروت ج2 ص: 133 .

15 - ينظر : التطور اللغوي: مظاهره و علله و قوانينه د. رمضان عبد التواب ص: 34.

16 - ينظر: الكتاب سيبويه ج4 ص: 478.

17 - المصدر نفسه و الصفحة نفسها.

الصاد مهموسة والزاي مجهورة أبدلت زايا، لتناسب أو تماثل الدال في الجهر.

ومن السياقات اللغوية التي وظف فيها مصطلح **القلب** للدلالة على المماثلة قلب السين صادا، إذا كانت مسبوقة بصوت مستعلي في مثل **صِقت وصبقت**: «أبدلوا من موضع السين أشبه الحروف بالقاف ليكون العمل من وجه واحد، و هي الصاد، لأن الصاد تصعد إلى الحنك الأعلى للإطباق فشبهوا هذا **بإبدالهم** الطاء في **مصطبر** و الدال في **مزدجر**» (18) فالصاد من حروف الإطباق، وهي حرف مستعل لأن للسان معها يلتصق بالطبق فينتج عن ذلك تفخيما ، و مما توصف به حروف الإطباق أنها فخمة ، أما قوله ليكون العمل من وجه واحد ، أي ليكون قبل القاف حرف مستعل فجيء بحرف مستعل يضارع استعلاء القاف و هو الصاد بهدف تحقيق التجانس والانسجام لأنه من الصعب الانتقال من الإستفال إلى الاستعلاء.

* الإدغام :

من الألقاب التي خص بها **سيبويه** أيضا ما يعرف في الدرس الصوتي الحديث بالمماثلة الكاملة الإدغام، ولتعدد اوجه هذه الظاهرة نجد سيبويه قد خصص تحت باب الإدغام الرئيسي أبوابا فرعية لدراسة مواضيعه المختلفة، فقد عالج في الباب الأول إدغام الحرفين المثلين اسماه : «هذا

18 - المصدر نفسه ص: 470.

باب الإدغام في الحرفين المثلين اللذين تضع لسانك لهما موضعا واحدا لا يزول عنه»[19] و في الباب الثاني عالج إدغام الحرفين المتقاربين أطلق عليه اسم: «هذا باب الإدغام في الحروف المتقاربة التي هي من مخرج واحد» [20]

أما الباب الثالث فقد أسماه «هذا باب الإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا» [21]

* الإمالة :

الإمالة[22] ظاهرة صوتية تهدف إلى نوع من المماثلة بين الحركات، وتقري بعضها من بعض، و هي وسيلة من وسائل تيسير النطق، و بذل أقل مجهود عضلي، إذ الغرض منها في الأعم الأغلب تحقيق الانسجام

19 - الكتاب ج 4 ص: 437.

20 - المصدر نفسه ص: 445.

21 - نفسه ص: 460.

22 - الامالة لغة من الميل وهو العدول إلي الشيء و الإقبال عليه و كذلك الميلان، و مال الشيء يميل ميلا ومالا و تميالا (ينظر لسان العرب ابن منظور مادة مال).

اصطلاحا: جنوح بالفتحة إلى صوت الكسرة، و بالألف إلى صوت الياء و خير ما يمثل هذا التعريف قول ابن الحاجب: «الامالة أن ينحى بالفتحة نحو الكسرة». شرح الشافية لابن الحاجب ج 3 ص: 4. أو هي نطق الفتحة نطقا أماميا (دروس في علم الأصوات العربية جان كانتينو ص: 156.) و نحسب أن المعنى الاصطلاحي للإمالة قاصر على أداء المعنى اللغوي و ذلك أن الميل عن الفتحة كما يكون إلى الكسرة يكون إلى الضمة، وقد نبه إلى ذلك ابن جني: «و أما ألف التفخيم فهي التي تجدها بين الألف و الواو نحو قولهم: سلام عليك: و قام زيد وعلى هذا كتبوا الصلوة و الزكوة و الحيوة بالواو لأن الألف مالت نحو الواو.» (سر صناعة الإعراب ج 1 ص: 50.) و قد نبه المحدثون من علماء الأصوات إلى هذا النوع من الامالة، ورأى بعضهم أنه كما يمال الفتح إلى الكسر قد يمال إلى الضم (ينظر في اللهجات العربية إبراهيم أنيس ص: 56.) وقد درس النحاة و القراء الامالة فهي عندهم ذات أسماء متعددة فالشديدة تسمى أحيانا التكثير و البطح، و الإضجاع، و المتوسطة بين ين يقال لها التقليل والتلطيف (ينظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج2 ص:24.)

الصوتي، الذي يعد ضربا من المماثلة، و قد صرح بذلك ابن يعيش: «هو تقريب الأصوات بعضها من بعض لضرب من التشاكل». [23] كما ذكر ابن الجزري أن الفائدة منها هي: «سهولة اللفظ، وذلك أن اللسان يرتفع بالفتح، وينحدر بالإمالة، والانحدار أخف على اللسان من الارتفاع». [24]

وقد نبه إلى هذا النوع الحاصل بين الصوائت العديد من النحاة، والقراء القدامى، ونجد دلالة هذا المصطلح عن سيبويه الذي نسبه إلى الخليل: «فزعم الخليل أن اجناح الألف أخف عليهم، يعني الإمالة». [25] وذكر في موضع آخر: «وقال الخليل: لو سميت رجلا بها امرأة جاز فيها الإمالة». [26]

والإمالة عند سيبويه هي تقريب صوت من صوت: «فالألف تمال إذا كان بعدها حرف مكسور وذلك قولك عابد، وعالم، ومساجد، ومفاتيح، وعذافر، وهابيل، وإنما أمالوها للكسرة التي بعدها أرادوا أن يقربوها منها كما قربوا في الإدغام الصاد من الزاي حين قالوا (صدر) فجعلوها بين الصاد والزاي التماس الخفة.» [27] و تعليلها عنده هو الاقتصاد في الجهد العضلي، وهو ما عبر عنه بقوله: «فكما يريد في الإدغام أن يرفع لسانه من موضع واحد، كذلك يقرب الحرف إلى الحرف عل قدر ذلك». [28] ولا

23 – شرح المفصل لابن يعيش ج 9 ص: 54.

24 – النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج 2ص: 28.

25 – الكتاب لسيبويه ج 3 ص: 278.

26 – المصدر نفسه ج 4 ص: 135.

27 – المصدر نفسه ص: 117.

28 – المصدر نفسه و الصفحة نفسها.

شك أن تقريب الفتح من الكسر فيه من تيسير عملية النطق ما يجعل المتكلم يبذل أقل مجهود عضلي، ويمثل سيبويه لهذه الظاهرة بجملة من الكلمات من مثل: عماد، سربال، شملال، كلاب،[29] فحين نميل ألف عالم نكون قد قربنا الألف من كسرة لاحقة وهي كسرة اللام، وهذا تأثر رجعي إذ تأثرت الألف بالكسرة الموالية لها، أما في سربال فقد تأثرت الألف بكسرة سابقة فأميلت حتى و إن كان بينها وبين الكسرة حرف ساكن، ذلك لأن الحرف الساكن عند سيبويه:«ليس بحاجز قوي» [30] وهذا التأثر تأثر تقدمي إذ تأثرت الكسرة وهي الحركة الأولى في الألف فأمالته.

ومن صور التغيرات التماثلية الخاصة بالصوائت نذكر ما ساقه سيبويه عن إمالة الألف للياء يقول: «و مما تمال فيه ألفه قولهم: كيال، وبياع، وسمعنا بعض من يوثق بعربيته يقول كيال كما ترى، فيميل، وإنما فعلوا هذا لأن قبلها ياء فصارت بمنزلة الكسرة التي تكون قبلها نحو سراج وجمال...ويقولون شوك السيال والصياح، كما قلت: كيال وبياع وقالوا شيبان و قيس عيلان و غيلان فأمالوا للياء.» [31] تمال الألف إذا سبقت بياء سواء جاورتها في مثل كيال و بياع أو فصل بينهما فاصل في مثل شيبان وهي هنا بمنزلة الكسرة التي قبلها في نحو سراج وجمال، والكسرة أخت الياء وهذا تأثر تقدمي إذ تأثر الثاني بالأول.

29 - ينظر المصدر نفسه ص: 117.

30 - المصدر نفسه و الصفحة نفسها.

31 - الكتاب لسيبويه ج4 ص: 121 و 122.

ومن نماذج التأثر الرجعي ما ذكره عن إمالة ما فيه راء نحو: قارب والكافرون حيث أن الراء تغلب الألف فتؤثر فيه، وتميله، وإنما حدث ذلك لأن الراء مكسورة والكسرة المتأخرة عن الألف تجعله مال إلى الألف وأبلغ ما تمال فيه الألف نحو الياء إذا سبقها حرف من حروف الاستعلاء، وقد نتصور مدى صعوبة تحقيق كلمة مثل: غارم إذ الغين حرف مستعلي، مفخم و ما يزيده استعلاء، و تفخيما الفتحة الطويلة بعد الألف، ثم ينتقل بنا اللسان إلى حرف مستفل، مرقق و هو الراء يقول سيبويه: «و مما تغلب فيه الراء قولك: قارب و غارم و هذا طارد وكذلك جميع المستعلية إذا كانت الراء مكسورة بعد الألف التي تليها و ذلك لأن الراء لما كانت تقوى على كسر الألف في فعال في الجر وفعال، لما ذكرنا من التضعيف، قويت على هذه الألفات إذا كنت إنما تضع لسانك في موضع استعلاء ثم تنحدر وصارت المستعلية هنا بمنزلتها في قفاف.» (32)

* الاتباع:

مما سجله اللغويون القدامى ظاهرة أطلقوا عليها: «الاتباع» وهي ضرب من ضروب تأثر الصوائت المتجاورة بعضها ببعض، ويطلق عليها اللغويون المحدثون اسم: «التوافق الحركي» (33) vowel harmony وهذه الظاهرة تدخل أيضا في باب المماثلة، وهي مماثلة حركة لحركة أخرى مماثلة تامة.

---

32 - المصدر نفسه ص: 136 و 137.

33 - ينظر الأصوات اللغوية إبراهيم أنيس ص: 207.

يعد سيبويه من النحاة الأوائل الذين أدركوا وجود هذا النوع من المماثلة في اللهجات العربية، و دلل عليها مستخدما لفظ الاتباع حينا، وواصفا الظاهرة حينا آخر، فمن المواطن التي وظف فيها هذا المصطلح قوله: «واعلم أن قوما من ربيعة يقولون (منهم) اتبعوها الكسرة، و لم يكن المسكن حاجزا حصينا عندهم.» [34] استعمل هنا لفظ الاتباع قاصدا به المماثلة في مسارها التقدمي بين كسرة الميم، و ضمة الهاء، وقد أطلق اللغويون على هذه الظاهرة اسم «الوهم» يقول جلال الدين السيوطي: «و من ذلك الوهم في لغة كلب يقولون منهم و عنهم و بينهم، وإن لم يكن قبل الهاء ياء ولا كسرة» [35] وعزيت إلى قبيلة كلب وهي من القبائل البدوية التي تميل إلى الانسجام بين أصواتها لأن هذه الظاهرة في هدفها العام تندرج ضمن مماثلة حركة لحركة تسهيلا لعملية النطق، و إن كان د. إبراهيم أنيس له تفسير آخر حيث يرى أن لهجة كلب من الممكن أن تكون قد تأثرت بمن جاورها من لغات سامية كالآرامية، و العبرية اللتان تؤثران الكسر في مثل هذه الضمائر[36]

كما يستعمل سيبويه مصطلح الاتباع في صيغة الفعل في سياق حديثه عن كسر ضمير المخاطبين يقول: «وقال ناس من بكر بن وائل: من أحلامكم، وبكم، شبهها بالهاء لأنها علم إضمار، و قد وقعت بعد

34 – الكتاب لسيبويه ج 4 ص: 196.

35 – المزهر في علوم اللغة و أنواعها جلال الدين السيوطي ج I ص: 222.

36 – ينظر في اللهجات العربية لإبراهيم أنيس ص: 95.

الكسرة، فاتبع الكسرة الكسرة، حين كان حرف إضمار و كان أخف عليه أن يضم بعد أن يكسر وهي رديئة جدا.»[37] رغم أنه يصف هذه اللهجة التي نسبها إلى بكر بن وائل بالرديئة جدا فانه يعلل هذا الاتباع بأنه أخف على اللسان من الانتقال من كسرة إلى ضمة حين قال «اتبع الكسرة كسرة» فنص صراحة على أن هذه اللهجة لون من ألوان الاتباع أو الانسجام الحركي يهدف إلى التقليل من الجهد العضلي، و ذلك بجعل الحركتين متماثلتين تماثلا تقدميا، و تسمى هذه الظاهرة باسم «الوكم» : «و من ذلك الوكم في لغة ربيعة و هم قوم من كلب يقولون عليكم و بكم حيث كان قبل الكاف ياء أو كسرة.» [38] ومن معاني الوكم الرد الشديد يقول ابن منظور: «وكم الرجل وكما: رده عن حاجته اشد الرد.» [39] ولعل التسمية جاءت من هذا المعنى لأن أصحاب هذه اللهجة يردون الضم إلى الكسر.

ومن صور الاتباع عند سيبويه ما ذكره عن كسر ضمير الغائب المفرد لما قبله من كسرة أو ياء يقول: «اعلم أن أصلها الضم و بعدها الواو، لأنها في الكلام كله هكذا، إلا أن تدركها هذه العلة التي أذكرها لك، و ليس يمنعهم ما أذكر لك أيضا من أن يخرجوها على الأصل فالهاء تكسر إذا كان قبلها ياء لأنها خفية، كما أن الياء خفية، و هي من حروف الزيادة،

37 – الكتاب لسيبويه ج 4 ص: 197.

38 – المزهر في علوم اللغة و أنواعها للسيوطي ج 1 ص: 222.

39 – لسان العرب لابن منظور مادة (و ك م)

كما أن الياء من حروف الزيادة،و هي من موضع الألف وهي أشبه الحروف بالياء، فكما أمالوا الألف في مواضع استخفافا كذلك كسروا هذه الهاء، وقلبوا الواو ياء، لأنه لا تثبت واو ساكنة وقبلها كسرة، فالكسرة هنا كالإمالة في الألف لكسرة ما قبلها وما بعدها نحو: كلاب وعابد وذلك قولك: مررت بهي قبل، ولديهي مال، ومررت بدارهي قبل، و أهل الحجاز يقولون: مررت بهو قبل، و لديهو مال، و يقرءون: " فخسفنا بهو و بدارهو الأرض."[40] »[41]

يعتبر سيبويه أن الأصل في ضمير الغائب أن تعقبه ضمة طويلة و هو يتحدث دائما عن الواو في هذا الصدد كما لو كان الضمير مكونا من هاء تليها واو، وحدد المواضع التي كسرت فيها هذه الهاء و ذلك إذا كان قبلها ياء أو كسرة، فهذا تأثير مقبل.

ومن مظاهر الاتباع عنده ما ذكره عن كسر الفاء لكسر العين يقول: «وفي فعيل لغتان فعيل و فعيل إذا كان الثاني من الحروف الستة[42] مطرد ذلك فيهما لا ينكسر في فعيل و لا فعل، إذا كان كذلك كسرت الفاء في لغة تميم، وذلك قولك: لئيم و شهيد، و سعيد، و نحيف، و رغيف... و إنما كان هذا في هذه الحروف، لان هذه الحروف قد فعلت في يفعل ما ذكرت لك حيث كانت لامات من فتح العين، ولم تفتح هي أنفسها هنا لأنه ليس في الكلام فعيل، وكراهية أن يلتبس فعل بفعل فيخرج من هذه

40 - سورة القصص الآية: 81.

41 - الكتاب لسيبويه ج 4 ص: 195.

42 - يعني حروف الحلق.

الحروف فعل، فلزمها الكسر هنا وكان أقرب الأشياء إلى الفتح وكان من الحروف التي تقع الفتحة قبلها لما ذكرت لك.» [43]

يشير سيبويه في هذا النص إلى أن الانسجام الصوتي وسيلة من وسائل تيسير النطق، و ذلك عندما ذهب إلى أن بعض العرب[44] تكسر فاء الفعل لكسرة عينه في فعيل، وهو تأثر رجعي، و إنما دعاهم إلى ذلك دفعا لمشقة الانتقال من فتح إلى كسر، أو من علو إلى انحدار لأن أصوات الحلق هي أقصى الحروف مخرجا، و أبعدها في جهاز التصويت، والانتقال بالفتح في حروف من حروف الفم، أو الشفتين إلى الكسر في حرف من حروف الحلق مبعث صعوبة غير يسيرة، فتبعت حركة الفاء حركة العين توخيا للاقتصاد في الجهد العضلي، تحقيقا للانسجام الصوتي، وهو ما عبر عنه: «فكسرت ما قبلها حيث لزمها الكسر وكان ذلك أخف عليهم حيث كانت الكسرة تشبه الألف، فأرادوا أن يكون العمل من وجه واحد.» [45]

ينعت بعض الدارسين المحدثين عملية اتباع حركة الفاء لحركة العين ب: «مشاكلة التهيؤ» [46] وكأن الفاء تتهيأ لكسر العين، وقد نحس بذلك

43 - المصدر السابق ج 4 ص: 107 و 108.

44 - صرح سيبويه بأن الذين مالوا إلى هذا الاتباع هم تميم، و أضاف غيرهم إلى تميم من جاورهم من سكان نجد و كذلك قيس و أسد يقول صاحب اللسان: «لغة تميم شهد بكسر الشين يكسرون فعيلا في كل شيء كان ثانيه أحد حروف الحلق، و كذلك سفلى مضر يقولون فعيلا أي بالكسر، قال و لغة شنعاء يكسرون كل فعيل» لسان العرب ابن منظور مادة (ش هـ د)

45 - الكتاب لسيبويه ج 4 ص: 108.

46 - ينظر: الامالة في القراءات و اللهجات العربية د. عبد الفتاح شلبي دار نهضة مصر للطبع و النشر القاهرة 1391هـ 1971م ط 2 ص: 255.

و نحن نردد الصيغة أكثر من مرة لأن اللسان تحدوه رغبة في أن يتخلص من فتح الفاء خاصة في صيغة فعيل التي تعقب فيها كسرة الياء العين وهي كسرة طويلة، فليس غريبا أن نجد تميما تميل إلى كسر الفاء اتباعا للعين، ولا يتنافى هذا العزو من أن الاتباع أو الانسجام الصوتي ميزة من ميزات اللهجات البدوية، و أثر من آثار السرعة في الكلام.

خـاتـمـة :

من كل ما تقدم من وصف سيبويه لظاهرة المماثلة، نخلص إلى النتائج التالية :

1 ـ إن مصطلح المماثلة ورد عند سيبويه في تحليله لقضايا لغوية : صوتية، و صرفية، و نحوية، و دلالية.

2 ـ تناول سيبويه مصطلح المماثلة في اكثر من موضع من كتابه، وتحدث عما يحدث من تأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض.

3 ـ لم يخص سيبويه هذه الظاهرة بمصطلح مقيد لها، مثل المضارعة، بل جاءت مظاهرها موزعة على أبواب متفرقة، و بتسميات متباينة كالإبدال، و القلب، والإدغام، و الامالة، والاتباع ...

4 ـ إن هذا التعدد في المصطلحات للظاهرة الصوتية الواحدة لا يعني غياب فكرة المصطلح، أو عدم نضجها لدى سيبويه، أو لدى غيره من أئمة

اللسان العربي، بل العكس من ذلك فقد اختار أكثر الألفاظ استغراقا لمعانيه المراد التعبير عنها، لتفسير الكثير من المسائل اللغوية.

5 ـ إن تخصيص سيبويه أكثر من مصطلح لظاهرة صوتية واحدة لا يعني أن أحد المصطلحات متطور عن الآخر، أو أدق منه، بل لقد سيقت جميعها لأداء المعنى.

6 ـ تحدث سيبويه عن المماثلة بين الصوامت، كما تحدث عن المماثلة بين الصوائت، كحديثه عن مماثلة فتحة عين المضارع مما لامه، أو عينه حرف حلقي.

7 ـ نقول في الأخير إن معالجة سيبويه للمماثلة لا تبتعد كثيرا عن الدراسات التي قيد بها علماء الأصوات المحدثون هذه الظاهرة، فعلينا أن نستثمر هذه الجهود الرائدة، ونحسن توظيفها في ضوء المنهج الصوتي الحديث.

المصادر:

- القرآن الكريم: رواية ورش، دار الشروق: 1402هـ - 1982م.

- الكتاب: سيبويه تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل - بيروت ، ط 1- 1411هـ-1991.

المراجع:

- الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة: ط 4 - 1981م.

- الأصوات اللغوية: د. عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنشر والتوزيع عمان، الأردن، ط1, 1998م.

- الأزهري اللغوي: تأليف الدكتور سميح أبو المغلي، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع: عمان- الأردن: ط 1- 1418ـ- 1998م.

- الامالة في القراءات واللهجات العربية: د. عبد الفتاح شلبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة: ط2- 1391 هـ-1971م.

- التطور اللغوي، مظاهره وعلله وقوانينه: د. رمضان عبد التواب - مكتبة الخانجي (القاهرة)، دار الرفاعي (الرياض) ، ط 1404هـ -1983

- الخصائص: أبو فتح ابن جني تحقيق محمد علي النجار دار الكتاب العربي بيروت

- دراسة الصوت اللغوي: د. أحمد مختار عمر دار الكتب ط3, 1405هـ-1980 م.

- دروس في علم الأصوات العربية: جان كانتينو، ترجمة الأستاذ صالح القرمادي، نشرات مركز الدراسات و البحوث الاقتصادية والاجتماعية - تونس 1966م.

- سر صناعة الإعراب: ابن جني، تحقيق حسن هنداوي، دار القلم دمشق سوريا، ط1 1405هـ - 1985 م.

- شرح شافية ابن الحاجب: تأليف الشيخ رضي الدين الاسترابادي، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، 1395هـ - 1975م.

- شرح المفصل: ابن يعيش، عالم الكتب، بيروت، ب.ط.

- في اللهجات العربية: إبراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ط 9- 1995.

- لسان العرب: ابن منظور دار صادر للطباعة و النشر، دار بيروت للطباعة و النشر 1388 هـ- 1968 م.

- المزهر في علوم اللغة و أنواعها: جلال الدين السيوطي شرحه وضبطه وعنون موضوعات و علق حواشيه محمد أحمد جار المولى، علي بجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم: دار الجيل: بيروت - لبنان 1986م.

- النشر في القراءا ت العشر: ابن الجزري، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان ط 1, 1418هـ - 1998م.

- المراجع الأجنبية:

(1) An outline of English phonetics -Daniel Jones- W Heffer Sons LTD Cambridge Englend 9th 1972.